
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط

* الحسين أسكان

لعبت المدرسة كمؤسسة جديدة انضافت للمؤسسات التعليمية بالمغرب في القرن السابع الهجري دورا مهما في تطور المسار التعليمي بالمغرب الوسيط وما بعده، إذ غيرت كثيرا من التقاليد التعليمية الإسلامية التي كانت سائدة قبل ظهورها في القرن السابع الهجري، وأرست تقاليد جديدة في المجال التعليمي، وأثرت بصفة خاصة في طرق تمويله وفي أهدافه وحتى في مضامينه وغيرها، وقبل متابعة ورصد أهم التغييرات التي أحدثها ظهور المدرسة على تلك التقاليد وعلى تطور التعليم، من الضروري أولا، إعطاء تعريف للمدرسة كمؤسسة تعليمية متميزة، وتحديد تاريخ ظهورها بالمغرب الأقصى وبالغرب الإسلامي عموما كنقطة ثانية، والتعريف بالظرفية التاريخية العامة لظهورها، وتحديد الملابسات العامة لانتشارها الجغرافي في ربوع البلاد بعد ذلك. وأخيرا الوقوف عند تأثيرها في المسار التعليمي المغربي خلال القرن السابع الهجري وما بعده؟

مفهوم المدرسة :

قد يتبادر إلى الذهن عند سماع لفظ المدرسة أن مفهوم المدرسة لا يتجاوز معناها

* - أستاذ باحث – كلية الآداب بنمسيك

اللغـــوي الذي يعني أي مكان تلقى فيه الدروس، سواء كان هذا المكان في المسجد أو في الرباط أو في الزاوية أو في منزل... غير أن للكلمة مفهوما تاريخيا محددا ودقـيقا يخــتلف عن المؤسسات التعليمية السابقة وينبغي التعرف عليه رفعا لكل التــباس أو خلــط تاريخـــي بينه وبين أماكن الدراسة والمؤسسات التعليمية خلال العصــر الوسيط الإسلامي. ويمكن القول أن المدرسة هي مؤسسة تعليمية جديدة ظهــرت فـــي المشــرق خــلال القرن الخامس الهجري، وتتميز عن غيرها من المنشآت التعليمية بأربع مميزات أساسية:

1 : هـــي بـــناية مســتقلة عن أية بناية عمومية أخرى كالمسجد مثلا، وتنحصر مهمــتها فـــي القيام بوظيفة واحدة هي التعليم دون غيرها، على عكس المسجد أو الرباط أو الزاوية التي كانت تزاوج بين التعليم ووظائف عديدة أخرى كالعبادة أو الجهاد بالرباطات مثلا.

2 : تعـــتمد كلــيا فـــي أداء وظيفتها التعليمية على الأحباس الموقوفة عليها والتي يخصص مدخولها للإنفاق على الطلاب الغرباء والفقراء المسجلين بها وتوفر منها مؤونـــتهم ولباسهم السنوي، كما تتوفر بنايتها على غرف لإيواء الطلاب الغرباء، وتـــؤدى منها أجور المدرسين والقائمين على تسييرها، وتشمل أحباسها خزانة من الكتـــب العلمـــية الموقوفة لفائدة الطلاب المنتمين إليها. فالمدرسة بفضل أحباسها تعفـــي الطـــلاب مـــن تحمل مصاريف أربعة أمور على الأقل، كانوا مضطرين لـــتحملها قـــبل ظهـــور المدرسة، وهي: أجرة المدرسين، تكاليف المبيت والأكل واللـــباس، وشـــراء الكتـــب الدراسية أو كرائها لنسخها، بل يكون ضمن أحباسها أحـــيانا مقـــبرة لدفن من يتوفى من طلابها كما هو الشأن بأقدم مدرسة بسبتة(1)، وبذلـــك حولـــت المدرسة التعليم من تعليم بتمويل ذاتي من طرف الطلاب ومؤدى عنه في أغلب الأحيان إلى تعليم مجاني يعفي الطلاب الفقراء من عادة الجمع بين العمل والدراسة.

ومعلـــوم أن أحـــباس المدرســة كغيرها من الأوقاف أصلها أملاك شخصية للمحبســين ســـواء كـــانوا من الرعايا أو من الحكام، والحاكم عندما يحبس على المدرســـة لأنه يتصرف كغيره من المسلمين الأتقياء ويحبس على نشر العلم ابتغاء مرضـــاة الله، ولا ينبغي أن نفهم أن بناء المدارس من طرف السلاطين بأنه عمل رسمي أو أنه مظهر من مظاهر تدخل الدول في الميدان التعليمي.

3 : المدرســـة مؤسســـة حضـــرية بامتـــياز وليست مؤسسة تعليمية بدوية، إذ أن المؤسســـة التعليمية البدوية المشابهة للمدارس تمول بأعشار وصدقات القبائل ولا تمـــول بالأحـــباس الشخصية كمدارس المدن، إذ ترتبط البدوية بالأستاذ المؤسس الـــذي يضع لها أنظمة وتقاليد دراسية، خلافا لمدارس المدن التي يضع المحبسون تقالـــيدها الدراســـية، وأقدم مؤسسة من هذا النوع في بوادي المغرب كانت رباطا جمع بين التعليم والجهاد والعبادة كما هو معروف في الرباطات، وهو رباط ظهر في القرن الخامس الهجري على يد وجاج بن زلو اللمطي شيخ عبد الله بن ياسين الذي" بنى دارا سماها **دار المرابطين** لطلبة العلم وقراء القرآن"(2).

4 : المدرسة هي مؤسسة تعليمية سنية صريحة منذ ظهورها أوائل القرن الخامس الهجري بخراسان وأداة استخدمت لنشر المذهب السني ومحاربة الفرق والمذاهب غـــير الســـنية علـــى امتداد الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، إذ ارتبط ظهورها بانـــبعاث حـــركة أهل السنة بالشرق الإسلامي على حساب مختلف فصائل التيار الشيعي، وهو ما ستقوم به المدارس بالمغرب، لهذا أضاف أحد الباحثين أن لمفهوم المدرســـة " نكهـــة تقنية خاصة "مرتبط بهذا الدور(3) فمتى ظهرت المدرسة بهذا المفهوم بالمغرب وبالغرب الإسلامي بصفة عامة؟.

إشكالية ظهور المدرسة بالمغرب وملابساته :

- إذا كـــان هناك اتفاق بين الباحثين بأن المدرسة بالمفهوم السابق قد ظهرت بالمشـــرق في القرن الخامس الهجري، فإنه يوجد اختلاف بين المؤرخين المغاربة حـــول تـــاريخ ظهور المدرسة بالمغرب، وهو اختلاف ناتج عن تضارب روايات

المصادر التاريخية و عدم تمييز بعضها بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي لكلمة المدرسة، وناتج كذلك عن تأخر فترتكتابتها عن زمن تأسيس المدارس الأولى بالمغرب. ورد في ثلاثة مصادر متأخرة ما يوحي بأن تاريخ ظهورها يرجع إما إلى وقت ظهورها بالمشرق في القرن الخامس منها كما في " الإعلام " الذي نسب ليوسف بن تاشفين(452-499هـ) أنه أسس مدرسة الصابرين بفاس (4)، أو يرجعه إلى القرن السادس الهجري وبالضبط إلى عهد يعقوب المنصور(580-595هـ) الذي نسب إليه أنه حبس مدرسة وزاوية على أبي العباس السبتي بمراكش(5)، أو أنه بنى مدرسة شمال الجامع الأعظم من مدينة سلا (6)، كما نسب إليه ابن أبي زرع أنه بنى مدارس بكل من إفريقية والمغرب والأندلس دون تحديد عددها أو أمكنتها(7). هذه الروايات الثلاثة و المتأخرة لا تؤيدها المصادر الأخرى بل على العكس تتناقض معها، حين تنفي ظهور المدارس قبل القرن السابع الهجري مثل المقري أو ابن مرزوق حتى سنة 674 هـ الذي يؤكد "إن إنشاء المدارس كان غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد مدرسة الحلفاويين"(8) ، وهذا ابن جبير في القرن السادس الهجري يوصي الطلاب الفقراء من المغاربة للذهاب إلى مدارس المشرق سنة 580هـ قائلا: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطالب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك"(9)، كما أن المصادر المعاصرة لتأسيس المدارس الأولى لم يفتها أن تشير إلى جدة الحدث كما سنرى لاحقا ومنهم ابن الخطيب الذي يشير إلى جدة الحدث في الأندلس في النصف الأول من القرن الثامن الهجري بقوله عن مدرسة غرناطة التي أحدثها الحاجب (الوزير) رضوان النصري بين سنوات 734-740 هـ" ولم تكن بها سبل الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة وانفرد بمنقبتها..." (10)، ومن خلال تصفح ودارسة

المصـــادر المـــتاحة يتضـــح أن المدرسة وصلت المغرب بعد قرنين من ظهورها بالمشـــرق، وبالضبط سنة 635 هـــ بمدينة سبتة على يد أحد الخواص وليس على يد المخزن.

1 - مدرسة أبي الحسن الشاري السبتي بسبتة 635هـــ .

تمـــثل هـــذه المدرســـة أقـــدم مدرســـة بمفهومها الدقيق في المغرب والغرب الإســـلامي، أسسها أحد الخواص من العلماء وهو أبو الحسن علي الغافقي الشاري (ت 649هـــــ) بجـــوار بـــاب القصـــر أحد أبواب سبتة سنة 635هـــ، وعين لها مؤسسها أحسن أملاكه "وقفها عليها سالكا في ذلك طريقة أهل المشرق"(11) وحبس علـــيها خـــزانة للكتـــب مشـــتملة على مصنفات في مختلف العلوم العلمية اقتناها المؤســـس لهـــذا الغرض، وقد أكد مؤرخ متأخر من القرن الثامن الهجري جدتها قـــائلا: إن"خـــزانة الشيخ على الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتـــناها من ماله، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم"(12) . وبما أن المـــبادرة جديدة بالمغرب فقد تلقى المؤسس مجموعة من الرسائل من طرف عدد مـــن معاصـــريه من العلماء والأدباء المغاربة والأندلسيين تتضمن قصائد لتهنئته على التنبه لهذه المنقبة والتفرد بهذا السبق، احتفظ لنا مؤلف الذيل والتكملة بنماذج مـــنها، ويتضح من خلال قراءة تلك الرسائل والقصائد ومن خلال مصادر أخرى أن حـــدث تأســـيس المدرسة على النمط المشرقي غير مسبوق بالمغرب قبل سنة 635هـــــ (13). لمـــاذا ظهرت أول مدرسة في هذا التاريخ وبالضبط بمدينة سبتة دون غيرها من مدن الغرب الإسلامي؟

بالطـــبع لـــم يكن إنشاء هذه المدرسة مجرد تقليد للمدارس المشرقية، بل يجب البحث عن أسباب ظهورها في طبيعة شخصية المؤسس، وفي الظرفية العامة التي يجتازها المغرب ومدينة سبتة على الخصوص خلال الثلث الأول من القرن السابع الهجري. المؤسس ينتمي لأسرة علمية أندلسية عريقة هاجرت إلى مدينة سبتة سنة 562هـــــ واستقرت بها، بالإضافة إلى أنها أسرة ثرية " ذات اليسار الواسع " لذا

تفـــرغ ابنها أبو الحسن لتحصيل العلم وحصل على ثقافة موسوعية مع ميل خاص لعلـــوم الحديـــث، وقـــد انفرد بالسند العالي في الحديث مما جعل علماء المغرب والأندلـــس يتنافسون في الأخذ عنه، وقد كرس الرجل حياته للعلم مفيدا ومستفيدا ولـــم يكن يولي أهمية للأمور المعيشة "حيث لم يباشر قط دينارا ولا درهما، وإنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه واللائذون بجنابه "(14)، كما مكنته هذه الثروة من اقتـــناء خزانة كتب ضخمة قلما توفر نظيرها لأمثاله من العلماء المعاصرين له أو مـــن المتقدمين. يتضح من هذه المعطيات أن المؤسس كانت له الإمكانيات المادية والعلمـــية اللازمـــة للقـــيام بمثل هذا المشروع، إلا أن أهم دافع وراء مبادرته هو طبيعته الشخصية إذ اشتهر بكونه "سنيا منافرا للبدع والأهواء معروفا بذلك " (15) فالرغـــبة فـــي الدفـــاع عن السنة هي التي حدت به تأسيس المدرسة لاستخدامها لمحاربـــة الانحـــرافات المذهبية والبدع كما حدث في المشرق، وقد باشر التعليم فيها بنفسه.

أمـــا ظرفية تأسيس المدرسة فقد تميزت بتعرض شمال المغرب ومدينة سبتة بالخصـــوص لسلسلة من الأزمات المتنوعة دامت أزيد من ربع قرن (610ـــ637 هـــ)، مـــنها: عـــدد من المجاعات والأوبئة استفحل أمرها سنة 635-637هـــ، ومـــنها الأزمـــة السياسية التي تتخبط فيها المدينة بسبب ضعف الدولة الموحدية، والمتجلـــية في الاضطرابات السياسية التي خلقها الأمراء الموحدين الذين يتولون المديـــنة، حين كان يثور بعضهم على بعض منذ سنة 629هـــ ، مما دفع بالمدينة إلـــى الاســـتقلال عن الحكم الموحدي فترة قصيرة حتى سنة 635هـــ، زيادة على تعـــرض المديـــنة للضـــغط المســـيحي إذ حوصرت المدينة لمدة سنة من طرف الجنوبيـــن عـــام 633هـــ، ولم يرفع عنها الحصار إلا بدفع سكان المدينة لغرامة مالـــية كبيرة للمحاصرين بلغت 400.000 دينار(16).لا شك أن هذه الاضطرابات والأزمـــات المتـــنوعة والتـــي دامـــت أزيد من ربع قرن قد أثرت على المستوى التعليمـــي بالمديـــنة وذهاب العلم بها، لانقطاع التدريس لدرجة أن المتصوف أبو

القاسم الصبان الذي كان يقرئ التصوف بمسجد المحلة " قطع الإقراء ولزم **بيته**"طيلة مدة ثلاث سنوات التي استغرقتها المجاعة(17)، وخلق ذلك مناخا ملائما لظهور البدع والأهواء وتزايدها، فكان الهدف من إنشاء المدرسة سنة 635هـ أحياء العلم والسنة بهذه المدينة، كما حدث بالمشرق قبل قرنيين.

وحسب المصادر فإن هذه المدرسة الأولى بالمغرب كانت حديثية خلافا للمدارس المرينية التي جاءت بعدها والتي تهيمن عليها الدراسات الفقهية، لأن تكوين المؤسس يغلب عليه الحديث، وقد باشر التعليم فيها بنفسه منذ نشأتها إلى أن نفاه اليانشتي أمير سبتة سنة 641هـ إلى الأندلس خوفا من منافسة أبي الحسن الشاري له على زعامة المدينة، وظل يدرس الحديث بمنفاه حتى وفاته سنة 649 هـ (18)، وكانت للمؤسس بنت محدثة ومسندة(19)، واستمر تدريس الحديث بالمدرسة حتى القرن الثامن الهجري إذ درس بها أبو عبد الله الغافقي الحديث وكان ناظر خزانتها(20)، وبهذا تكون هذه المدرسة مشابهة للمدارس الموحدية والحفصية التي كانت بدورها مدارس حديثية انسجاما مع المذهب التومرتي أكثر منها مدارس فقهية .

وهكذا تزعم الخواص مشروع المدارس بالمغرب قبل أن يتبناه المخزن المغربي بعد ذلك كما حدث في المشرق خلال القرن الخامس الهجري، فبعد 23 سنة من تاريخ ظهور مدرسة سبتة ظهرت مبادرتان مخزنيتان؛ الأولى من طرف المخزن الموحدي، والثانية من طرف المخزن المريني.

2 – المبادرة المخزنية:

ا – مبادرة المخزن الموحدي والحفصي :

بعد حوالي ربع قرن من تأسيس مدرسة سبتة أنشأ المخزن الموحدي مدارس بالمفهوم السابق لا نعلم عنها شيئا كثيرا، سوى ما عثر عليه الأستاذ محمد المنوني من وقفية كتابين حديثين حبسهما المرتضى(646-666هـ) واحد على مدرسة القصبة وأخر على مدرسة جامع المرتضى وتاريخ تحبيسهما سنة 558هـ، أو

الوصــف الذي قدمه لنا الحسن الوزان عن بنيان مدرسة القصبة التي كان بها 30 غرفة لإيواء الطلبة(21)، ويلاحظ أن هذا التاريخ يتزامن مع تاريخ ظهور المدرسة الأولــى بإفريقــية على يد الحفصيين، حين أسست المدرسة المنتصرية بطرابلس البعــيدة عن دار ملك الحفصيين خلال سنوات 555-558هــ (22). وإذا كان من الصعب تعليل وفهم هذا التزامن فقد علله بعض الباحثين بالمنافسة السياسية القائمة بين الحفصيين والموحدين(23).ومهما كان حجم المدارس الموحدية ووضعيتها فإن تأثــير المــدارس الموحدية على الحياة الدراسية كان محدودا لأنه جاء في الفترة الأخــيرة من حكمهم قبل ثماني سنوات من سقوط دولتهم، والمبادرة الهامة لتشييد المدارس في تاريخ المغرب جاءت على يد المخزن المريني.

ب – مبادرة المخزن المريني:

جاءت مبادرة المخزن المريني بعد أربعين سنة من تأسيس مدرسة سبتة وذلك حين أقدم أبو يوسف يعقوب على تدشين مدرسة بالحلفاويين قرب رحبة البقر إلــى القبلة من القرويين سنة 675هــ، وعرفت فيما بعد بمدرسة الصفارين، بنيت على يد قاضي الجماعة مفضل بن محمد الدلاي العذري " وهو أول من ســن سنة بناء المدارس بحضرة فاس "(24)، إذ لم تكن فاس تعرف المدارس حتى ذلك الوقت حسب إفادة ابن مرزوق السابقة الذكر، وقد نسب لهذا الأمير أنه بنى مدارس عديدة دون تحديد لعددها أو أماكن بنائها (25) .

التوزيع الجغرافي للمدارس المعروفة بالمغرب بين القرن 7هــ و10هــ

المصدر	الباني	عدد المدارس	المدينة
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	أزمور
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	أنفا
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	أغمات
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	آسفي
وصف إفريقيا...ج1ص170	المرينيون	3	تازة
تاريخ رباط الفتح...ص112	مجهول	1	الرباط

المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	طنجة
ابن بطوطة	بعضها مجهول	3	مراكش
وصف إفريقيا...ج1ص170	المرينيون	3	مكناس
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	العباد تلمسان
وصف إفريقيا...ج1ص170	7منها مرينية والباقي مجهول	11	فاس
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	قصر كتامة
بلغة الأمنية...ص177-178	أبو الحسن الشاري والمريني	2	سبتة
وصف إفريقيا...ج1ص170	مجهول	أكثر من 3	سجلماسة
المسند الصحيح...ص 405	أبو الحسن المريني	1	سلا
فيض العباب...ص40	أبو عنان المريني	1	شالة

غير أن مؤلف الذخيرة السنية يحدد بنائها بكل من فاس ومراكش(26)، والمدرسة المؤكد بناؤها بعد مدرسة بالحلفاويين هي المدرسة المسماة الشهود أو القاضي بمكناس والتي تزامن بناؤها مع مدرسة فاس(27)، مما يدل بالفعل على بناء مدارس بعدة مدن في عهد هذا الأمير.

وبعد هذه المدارس الأولى في عهد أبي يوسف، توقف المشروع المريني نصف قرن تقريبا ليستأنف من جديد سنة 721هـ. ما سبب هذا التوقف؟ هل هو بسبب معارضة الفقهاء لفكرة إنشاء المدارس، أم لأسباب أخرى؟.

بالفعل، واجه مشروع بناء المدرسة الأولى بفاس معارضة قوية من طرف فقهاء المدينة، واتخذت هذه المعارضة أشكالا مختلفة منها: تشكك فقهاء المدينة في صحة اتجاه قبلة المدرسة التي وضعها المعدل ابن الحباك الموالي للسلطان والمختص في علم الهيأة، مستندين على أنها منحرفة عن قبلة جامع القرويين (ثبت بالبوصلة حاليا أنها صحيحة)، وأثير أثناء النقاش المتسم بالمزايدات وجود انحراف قبلة مساجد فاس بعضها عن بعض، واضطر الأمير إلى عقد مناظرة في الموضوع بين الفقهاء انتهت إلى قبول رأي وسط والقائل أن المطلوب في القبلة جهة مكة لا عين الكعبة بذاتها(28). وظهرت هذه المعارضة مرة أخرى حين أراد

السلطان تدشينها، فصلى صلاة الجمعة بجامع القرويين القريب منها، والتقى بالفقيه إسحاق بن مطهر الورياغلي أحد أشهر زعماء المعارضة بفاس آنذاك (ت 683 هـ) وسلم عليه واستفتاه السلطان في ثلاث مسائل، فرفض الفقيه أن يجيبه معللا رفضه: " لا فائدة في السؤال فإنك لا تعمل بالجواب "(29). ويستنتج من سياق هذه الرواية وتوقيتها أن هناك خلافا عميقا بين هذا الفقيه وأتباعه وبين السلطان أبي يعقوب يوسف حول قضية تهم المدرسة المزمع تدشينها وحول قضايا أخرى مجهولة. هذين المثالين يوضحان بعض مظاهر معارضة الفقهاء بفاس للمدرسة وتحفظهم إزاءها.ما الذي دفع الفقهاء لاتخاذ هذا الموقف المعارض؟. إذا رجعنا إلى المشرق نجد أن الفقهاء أظهروا نفس المعارضة للمدارس، غير أن معارضتهم لم تكن موجهة ضد فكرة بناء المدرسة في حد ذاتها، بل كانت موجهة ضد طريقة تمويلها من مداخيل مشبوهة كالمال المغصوب(30)، أما إذا بنيت بالمال الحلال وعلم حال مؤسسها فإنه يتم التنويه والإشادة بها (31)، وهو نفس الموقف الذي اتخذه الفقهاء المغاربة بالذين يوصون بأخذ الاحتياطات والتحفظ من المدارس لنفس الأسباب، وقالوا بكراهية الصلاة ببعض المدارس وبأخذ مرتبها إذا ثبت أن المال الذي أنفق عليها حرام، ومعلوم أن أحباس السلطان والحكام على العموم لا يجوزها أغلب الفقهاء المالكيين وغيرهم لأن " نممهم مستغرقة "ولكون أموالهم مغصوبة، و المورد الوحيد الحلال من بيت المال في نظر الفقهاء هو جزية اليهود، أو غنائم الروم وهذا ما يفسر لجوء السلطان المريني إلى صرف مرتبات المدرسين من جزية اليهود وليس من الأحباس كما في مدرسة سبتة أو مدارس المشرق، وأنفق منها أيضا على ثريا الجامع الأعظم من المدينة البيضاء بفاس، وأجرى منها مرتب إمام المسجد المذكور وأنفق منها على مرستان فاس(32)، كما جدد السور الشرقي لجامع القرويين سنة 682هـ من جزية اليهود والأعشار(33)، أي أن هناك حرص

مــن طــرف هذا الأمير على الإنفاق على مشاريعه الخيرية والإحسانية من المال المتفق على حليته وهو الجزية.

لــم تكن إذن معارضة الفقهاء لطرق تمويل المدارس سببا في توقف المدارس خلال نصف قرن، بل يرجع السبب إلى الاضطرابات السياسية التي عرفتها الدولة المرينية والمتمثلة في الثورات المزمنة للأمراء داخل البيت الحاكم، وفي الصراع مــع الإمــارات المجــاورة: بنــي عــبد الــواد بتلمسان، بني الأحمر بغرناطة، والمسيحيين(34).

المــرحلة الثانية في المشروع المريني بدأت سنة 720هــ إلى وفاة أبي عنان 760هــ ودامت حوالي أربعين سنة أسست فيها أزيد من 20 مدرسة، منها: ثلاثة مــدارس شــيدها أبو سعيد عثمان(709–731هــ) في دار ملكه بفاس بعد عشر ســنوات مــن حكمه تمكن خلالها من توطيد سلطته على البلاد، وأضاف لها ابنه ثلاثة مدارس أخرى لما كان وليا للعهد، ولما استقل بالملك(731–749هــ) أسس خــارج فــاس اثنا عشر مدرسة موزعة على أهم مدن مملكته بالمغرب الأقصى وحــده، وواصــل أبو عنان(749–760هــ) تأسيس العديد من المدارس في مدن مختلفة أشهرها وأضخمها المدرسة التي تحمل اسمه بفاس. وقد مولت مدارس هذه المرحلة ليس من جزية اليهود كالمدارس الأولى، ولكن مولت بواسطة الأحباس (35) ، وهــذا التغيــير في نوعية تمويل المدارس راجع جزئيا إلى توطد السلطة المرينــية بشــكل كبــير بالمقارنة مع عهد أبي يوسف وإلى أسباب أخرى يتعين دراستها لاحقا.

أصــيبت حــركة بناء المدارس المخزنية بالفتور في تاريخ المغرب بصفة عامة، وكــادت تــتوقف كلــيا بسبب التحولات العميقة التي عرفها المغرب بعد وفاة أبي عــنان، واســترجعت المســاجد والزوايا مكانتها التعليمية من خلال تبنيها لطريقة المدرسة في تمويل التعليم بالأحباس كما سيأتي ذكره فيما يلي:

الدور التاريخي للمدارس :

لفهم الدور التاريخي للمدارس كمؤسسات جديدة ينبغي طرح التساؤل التالي:
ما الهدف من تأسيسها؟ هل كان المؤسسون يرمون إلى ما كان يرمي إليه أبي الحسن_الشاري؟

1 – **الهدف من تشييد المدارس**

أعطى جل الباحثين الذين تناولوا ظاهرة المدارس تأويلات مختلفة لأسباب بنائها والأهداف التي يتوخاها المخزن المريني منها، أهمها أطروحة مايا شاتزملر التي تفسر بناء المدارس المرينية برغبة الحكام في تكوين أطر دينية وإدارية مخلصة للبيت الحاكم، معللة ذلك بالمعارضة التي واجهها الحكم المريني في النصف الثاني من القرن السابع الهجري من الوسط الثقافي الفاسي(36). إن مثل هذا الاستنتاج لا تسمح المصادر بتأكيده بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من خلال نماذج لطلاب المدارس الذين أسندت لهم وظائف في جهاز الدولة الإداري. كما أنه من المعلوم أن إسناد الوظائف المخزنية يخضع إذا كان من " وظائف السيف" لاعتبارات سياسية يحددها الانتماء للعصبية القبلية الحاكمة، أما "وظائف القلم" التي تتطلب كفاءة أدبية وعلمية فإنها تسند للموالين للدولة من ذوي الكفاءات بصرف النظر عن انتماءاتهم القبلية بل حتى الدينية أحيانا، وتخضع في الغالب للزبونية والمحسوبية، فأسندت بعض الوظائف للأندلسيين وغيرهم، كما استعانوا أحيانا ببعض اليهود، كما أن طبيعة الدراسة بالمدارس لم تكن موجهة لهذا الغرض نظرا للدور الثانوي للمقررات الأدبية، ولغياب التكوينات الإدارية بها(37).

الهدف الأساسي وراء بناء المدارس والذي تلح عليه النصوص التاريخية، هو إحياء العلم وتوفير الظروف المعيشية المواتية لطلاب العلم والمدرسين ليتفرغوا لتحصيل العلم، هذا ما نجده واضحا في أغلب وقفيات التحبيس على المدارس، جاء في وقفية تحبيس المدرسة العنانية على سبيل المثال: "قصد أيده الله ببنائها

وجــه الله تعــالى في إحياء رسوم العلوم وتجديد العناية بالمنقول والمفهوم ابتغاء حســن الثواب على تخليد أعمال البر وإجراء الصدقات الباقية بقاء الدهر،...حبس أيــده الله على هذه المدرسة إرفاقا لطلبة العلم وأرفادا وإعانة لهم على طلبه "(38) ويقر العلماء كابن مرزوق مثلا في القرن الثامن الهجري أن العلم " لا يحفظ إلا بمعونــة طلابــه على طلبه وبعثهم على تعليمه وتعلمه، فإن تعليمه وتعلمه يمنعان من التسبب ويقطعان على الطلب"(39)، وحسب فتاوى فقهاء المغرب فإن ما يأخذه الطــلاب والمدرســون في المدارس ليس معاوضة أو أجرا على التدريس بل هو "إحســان وارتــزاق وإعانة وارتفاق "(40)، كما أن الكثير من المصادر تؤكد هذا الهــدف مــثل وصــية ابن جبير للطلاب المغاربة الفقراء سنة 580هــ بالتوجه لمدارس المشرق السالفة الذكر. لكن ما الذي حدث في القرن السابع وفرض تغيير طــرق تمويــل التعلــيم السابقة من تعليم مؤدى عنه إلى تعليم مجاني؟هل ظهرت أزمــة تعليمية خلقها تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية حتى أصبحت أمور المعيشة تحول بين الطلاب والدراسة وبين المدرسين والتدريس مما فرض إعانتهم بواســطة الأحــباس خــلال القرنيين السابع والثامن الهجري. تحدث المؤرخون المعاصــرون عن وجود أزمة تعليمية، عبر عنها العبدري الحاحي أواخر السابع الهجــري بمــوت العلم ببلاد القبلة المغرب الأقصى ومدن المغرب الأوسط وقلة الراغب في التعلم والمعين عليه(41)، ولم يستثن إلا مدينة تونس، وعبر الآبلي عن هذه الأزمة التعليمية بموت العلم وفساده(42)، ولامس تلميذه ابن خلدون جانبا آخر من الأزمة وعبر عنها بقلة جودة التعليم في المغرب وقلة سند التعليم فيه(43). وإذا كــان من الصعب الحكم من خلال هذه الأدبيات وغيرها عن درجة تراجع التعليم بالمغــرب من الناحية الكمية والكيفية، فإنه يمكن على الأقل اعتبارها مؤشرا على وجود أزمة تعليمية، والتي يمكن فهمها على ضوء الأزمات السياسية والاقتصادية التــي عــرفها الغرب الإسلامي بعد معركة العقاب 609 هــ، والتي تمثل أزمات مدينة سبتة نموذجا مصغرا لها في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وكان

مـن نـتائج ذلـك تـناقص عمـران المغرب الأقصى عما كان عليه في العصر الموحـدي حسب ملاحظة ابن خلدون(44)، والتي تؤكدها المصادر التاريخية، فقد توالى الخراب على المنشآت العمرانية بمدينة فاس مثلا أزيد من20 سنة من 617 إلـى 637 هـ بسـبب الفتـن والحـروب والمجاعات خاصة في عهد العادل والمـأمون(45)، ومـن مؤشـرات هذا التراجع الحضاري أن الثريا الكبرى التي صـنعت لجامع القرويين في عهد الناصر الموحدي تعطل إسراجها منذ 618هـ لكـثرة مـا تسـتهلكه مـن الزيت(قنطار وسبع قلل من الزيت كل ليلة)، واقتصر إشـعالها علـى لـيلة القدر وحدها مدة قصيرة، إلى أيام القاضي الحيوني وتعطل نهائـيا حـتى سنة 687هـ ، ليستأنف إسراجها في ليلة القدر فقط إلى ما بعد سنة 724هـ على الأقل(46). ويبدو كذلك أن العصبية الحاكمة التي كانت تحتكر العلم والتعلـيم أدركـت أن الرعية التي ترسخ إسلامها منذ العهد الموحدي في حاجة ماسـة لحد أدنى من التعليم الديني، وبما أنها لا تتوفر على الإمكانيات فكان الحل إحداث المدارس الممولة بالأحباس.

2 – الأدوار التاريخية للمدرسة بالمغرب الوسيط

بالإضافة إلى مهمة إحياء العلم كان لظهور المدرسة نتائج عديدة منها:

– تأثـير المدرسـة على المؤسسات التعليمية السابقة لها وجعل التعليم بها مجانيا يمـول بالأحـباس عـن طريق تحبيس الكراسي الدراسية بالمساجد لتدريس كتب بعيـنها أو مـادة بعيـنها دون التقيد بكتاب معين فيها(47). وتؤدى أجور المكلفين بالـتدريس علـيها من الأحباس، كما اقتبست المساجد من المدارس عادة تحبيس الخـزانة العامـة علـى الطلاب ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري، منها تحبـيس خزانة كتب الجامع الأعظم بسبتة سنة 750 هـ (48)، ومنها تحبيس أبي عـنان المرينـي سـنة 750 هـ خزانة على دامع القرويين ثم على بقية الجوامع الكـبرى بـأهم المـدن، وكانـت هذه الخزانات موجهة لعامة الطلاب بينما كانت

خـزانات المدارس موقوفة على الطلاب والأساتذة المنتمين إليها وحدهم(48). هل حلت المدارس الأزمة التعليمية ووضعت حدا لتدهور التعليم المتزايد ؟ .

– تعميم التعليم :لا شك أن المدارس نظرا لمجانية الدارسة بها قد ساهمت في نشر التعلـيم بيـن فئات اجتماعية واسعة حضرية وبدوية " ودمقرطته " نسبيا وجعله فـي متـناول أكبر عدد ممكن من الرعية، كما خففت من استئثار وهيمنة الحكام والأعـيان الدائرين في فلكهم بالقسط الأوفر من العلم والتعليم، ومن حدة التفاوت الثقافي والاجتماعي بين المخزن (الحكام)والرعية (المحكومين).

–تدهور المستوى التعليمي : على المدى البعيد أدت المدارس إلى تدني المستوى التعليمي لعدة أسباب منها:

أ – أن التحبيس وجه التعليم حسب رغبات المحبسين وشروطهم، وبدأ التعليم يفقد حريـته وديناميكيته السابقة، واتجه المضمون نحو العلوم النقلية، وأقصيت بعض العلـوم العقلـية كالفلسـفة مثلا، وقد لاحظ حسن الوزان هذا التهميش لدى سكان شـمال افريقـيا بعـد ظهور المدارس وما آل إليه الأمر في عهده في بداية القرن العاشـر الهجـري "وكـان من عاداتهم في القديم أن يدرسوا الرياضيات والفلسفة وحـتى علم الفلك غير أنه منذ أربعمائة سنة خلت ... منعهم فقهائهم وملوكهم من تعاطـي معظـم هـذه العلوم وذلك ما حدث للفلسفة والتوقيت الشرعي " وبما أنه موجـه للدراسـات الفقهـية ولشـريحة واسعة من الطلاب الفقراء، فقد ظهرت المختصـرات تسهيلا للتعليم وربحا للوقت والمال فكانت أضرارها كبيرة، وألغت فـي نفـس الوقت الرحلة العلمية ولقاء المشايخ التي كانت أصل العلم في التعليم الإسلامي(50).

ب – إن المحبسين سواء كانوا من الحكام أو من الرعية لا يقصدون تدجين التعليم بل كان هدفهم المعلن هو ابتغاء الثواب ومرضاة الله كما سبق الذكر فالمخزن كان دائما يملك الوسائل والقوة لفرض نوع من التعليم أو منع تدريس مواد بعينها كعلم الكـلام أو كتـب محددة مثل كتاب الاحياء للغزالي في العهد المرابطي أو إحراق

كتـب الفروع في عهد يعقوب المنصور فام يكن في حاجة لإنشاء المدارس قصد تدجيـن التعلـيم ومراقبته إذ كان يشرف عليه دائما ويراقبه بوسائل عديدة . لكن الظاهرة الجديدة مع ظهور المدارس هو تحكم القاضي في تعيينات المدرسين وفي تسـيير الأحـباس سـواء كان أصلها من الرعية أو رجال المخزن، ولا تتم هذه التعيينات دائما حسب كفاءة المدرسين العلمية بل تتم حسب اعتبارات أخرى، ومن جهـة أخـرى كـان أغلـب ذوي الكفاءة العلمية لا يقبلون أن يأخذوا الراتب من المدرسـة لأنـه غـير حلال ومال مغصوب كما تقدم مما جعل المستوى العلمي والـتربوي للمدرسـين المعينيـن بـالمدارس متدنيا في الغالب، وقد أجمل الآبلي النقائص المترتبة عن نظام المدارس وحمل مسؤولية فساد العلم وموته إلى بنياتها ويقـول : " إنمـا أفسـد العلم كثرة التآليف وأذهبه بنيات المدارس "(51). ويوضح المقـري المقصـد من كلام شيخه " وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم ... وأما البناء لأنه يجذب الطلبة لما فيه من مرتب الجاريات فيقبل بهم علـى من يعينه أهل الرئاسة للإجراء والإقراء منهم أو من يرضى لنفسه الدخول فـي حكمهـم ويصرفه عن أهل العلم حقيقة ، الذين لا يدعون لذلك وإن دعوا لم يجيـبوا وإن أجـابوا لم يوفوا بما يطلبون من غيرهم "(52). وبع أربعة قرون من ظهـور المدارس انتهى الأمر إلى انحطاط العلم بالمغرب مع نهاية القرن العاشر الهجري وصفه أحد المعاصرين وبين بعض أسبابه بقوله : " فلقد أدى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن المغربية التي هي بلاد العلم من قديم الزمان، كفاس وغيرها حتى صـار يـتعاطى الاقـراء علـى كراسيها من لا يعرف الرسالة أصلا فضلا عن غـيرها، بل من لم يفتح كتابا للقراءة قط فصار ضحكة. وسبب ذلك أنها صارت بالتوارث والرئاسات أعاذنا الله حتى خلت الساعة ممن يعتمد عليه في علمه "(53). ويؤكـد لنا الوزان تدني مستوى المدرسين في عدة مناسبات منها وصفه للمستوى العلمـي لأسـتاذ المدرسـة الموحدية بالقصبة في مراكش في عهده أوائل القرن

العاشـــر الهجـــري بقولـــه : " جهلـــه بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية وغامضة بالآداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى "(54).

فـــإذا كانـــت المـــدارس قـــد أحيت العلم عند ظهورها ووسعت من شرائح المتعلميـــن لتشـــمل إلـــى جانب الحكام قسطا من الرعية، فإنها أفرزت سلوكيات ســـاهمت بشـــكل كـــبر إلى جانب عوامل أخرى في انحطاط وتدني مستوى العلم والتعليم بالمغرب عند نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

هوامش

1- محمد بن القاسم الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية الرباط. طIII .1996ص21.

2- ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف،تحقيق احمد توفيق منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، 1984 ص 89 .

3 - القبلي محمد: قضية المدارس المرينية: ملاحظات وتأملات، مقال ضمن: في النهضة والتراكم.دراسات مهداة للأستاذ محمد المنوني، ط. دار توبقال للنشر الدار البيضاء 1985 ص 57.

4- ا لعباس بن ابراهيم: الاعلام بمن حل بمراكش من الأعلام، 10 أجزاء،ط .المطبعة الملكية-الرباط-1974، ج 8 ص 96.

5- نفسه ج 1 ص 283-284.

6- الناصري احمد السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ط، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954 ج 2 ص 188.

7- ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ط. دار المنصور للطباعة والنشر، 1973 ص 217.

8- ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيوس باغيرا، ط. الجزائر، 1981 ص 405 وما بعدها.

9- ابن جبير محمد: رحلة ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1981 ص 252.

10-ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 2 ، مكتبة الخانجي، القاهرة سنة 1973، ص 508-509.

11-بن عبد المالك محمد المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، السفر 8 تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984 ص197.

12- الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار ...م .س.ص 29

13- انظر عن جدة الحدث: ابن الزبير: صلة الصلة ، قسم الغراء منه المنشور آخر الذيل والتكملة س 8 مصدر سابق ص 555-557،جاء فيه: "وبنى مدرسة ببلده سبتة ووقف عليها من الكتب ما يحتاج إليه، وشرع في تكميل ذلك على السنن الجاري ببلادالمشرق"، وانظر كذلك ما جاء في ترجمته لدى ابن الخطيب في الإحاطة.وما لدى الأنصاري: في اختصار الأخبار ...م.س. ص 21 ، 29

14- بن عبد الملك: الذيل والتكملة... مصدر سابق س8 ص197

15- نفسه ص 201

16- عن هذه الأزمات، ابن أبي زرع: روض القرطاس...مصدر سابق ص272-276، ابن عذاري: البيان المغرب... ص،350،344،294

Du Forcq La question de ceuta au XIII siécle in Hespèris 1ér et 2ér tri 1995 P 67-128

17- البادسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف...م.س ص 68

18- ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غر ناطة، تحقيق عبد الله عنان، ط 2القاهرة 1973 ج4ص189

19- الأنصاري: اختصار الأخبار....مصدر سابق ص21

20- مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيما كان بسبتة من أستاذ وطبيب. ص.177

21- الوزان الحسن: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1980 ج 1ص104

22- التجاني أبو محمد عبد الله: رحلة التجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب.ط.الدار العربية للكتاب،ليبيا-تونس1981 ص 251-253

23- القبلي محمد: قضية المدارس المرينية ، مرجع سابق،ص 53

24- ابن القاضي أحمد: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس،دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط 1973 ص339.

25- ابن أبي زرع : روض القرطاس ...مصدر سابق ص 298

26- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط 1972.ص 162-163

27- ابن غازي محمد المكناسي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمنية- الرباط1951، ص 14

28- الجزنائي علي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية-الرباط.ط.2 سنة1991ص81-82 Shatzmeller. M

Les premiers Mérinide et le milieu religieux de Fès Introduction aux Médrasas in stvdia islamica t. XLIII. P109-116

29- البادسي عبد الحق الخزرجي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية – الرباط 1982 ص 111

30- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب بدون تاريخ ج 4 ص 307

31- ابن جماعة بدر الدين الكناني: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ط.دار الكتاب العلمية- بيروت بدون تاريخ ص 193-198

32- ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ...مصدر سابق، ص162-163

33- ابن أبي زرع : روض القرطاس...م.س.ص 68-69، وأنفق فيها كذلك على الفقراء والجذماء والعميان ، نفسه ، ص268

34- ابن أبي زرع : روض القرطاس...م.س. ص374-413

35- انظر الأملاك المحبسة على المدارس الثلاثة بفاس المبنية 620هـ وما بعدها، ابن أبي زرع : روض القرطاس م.س.411-413

36- M. Shatzmeller

Les premiers Mérinide et le milieu religieux de Fès…op. cit.

37- أعطيت تأويلات أخرى منها: أن المخزن المريني سعي من وراء تشييدها لنشر المذهب المالكي ومحاربة المذهب الموحدي كما جاء لدى Brignon(J) : et autres: Histoire du Maroc, éd. librairie Nationale.Casablanca1967.p165. وانظر كذلك مادة مدرسة في الموسوعة الإسلامية الفرنسية.

38 - Bel (A) : journal Asiatique.1918, p363-364

39- ابن مرزوق : المسند الصحيح...م.س. ص 405

40- الونشريسي أحمد: المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ط.الرباط 1981 ج7ص353

41- العبدري الحاحي: الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي،ط.الرباط 1965 ص 91،76،64،42،26،24،13،8

42- المنوني محمد: ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين، ط.الرباط، ص215-216

43- ابن خلدون عبد الرحمان : المقدمة ، ط. دار الكتاب اللبناني – بيروت 1997 ص981

44- نفسه ص653

45- ابن أبي زرع : روض القرطاس...م.س.ص49

46- نفسه، ص67

47- انظر عملنا: جوانب من تاريخ التعليم بالمغرب الوسيط، رسالة دبلوم الدراسات العليا ، مرقونة بكلية الآداب بالرباط ص80–81

48- مجهول: بلغة الأمنية ومقصد اللبيب...م.س. ص177

49- للمزيد من المعلومات حول هاتين المسألتين انظر عملنا: جوانب من تاريخ التعليم ...م.س، ومقال لنا : الإنفاق على التعليم بفاس بين القرنين السادس والثامن الهجريين، منشور ضمن أعمال الندوة المنظمة نونبر 1988: المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب بنمسيك الدار البيضاء، ص242–250

50- انظر عن دور الرحلة والمختصرات في التعليم : جوانب من تاريخ التعليم ...م.س. ص28–111،30

51- المنوني محمد: ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين، ط.الرباط، ص215–216

52- بابا التنبكتي أحمد: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ط. دار الكتب العلمية –بيروت د.ت ص 246

53- نفسه، ص247

54- الوزان : وصف إفريقيا...م.س.ص 104

جامعة محمد الأول
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة

إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني

إعداد: مصطفى نشاط

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم 73
سلسلة: بحوث ودراسات -29-

2003